الطرائف اللغوية

د. صالح بن سليمان الوهيبي

• ملخص البحث •

يدرس هذا البحث الطرائف العربية التي تنبع الطرافة فيها من لغتها راصداً بعض «عوامل الطرافة» اللغوية باستقراء ما ورد من طرائف في خمسة مصادر، وقد وجد الباحث أن الطرافة تكمن في عوامل كثيرة منها: التلاعب بالألفاظ، واستعمال اللفظ في غير موضعه، والوقوع في الخطأ اللغوي، واقتباس الشعر في مقام لا يناسبه، والخلط في الأسماء والأنساب والحوادث، وسوق الألفاظ الصعبة أو اختلاق الألفاظ، والتصحيف، وصرف العبارة عن مدلولها، وسوء فهم المتكلم أو المتلقي. وقد مُثل لتلك العوامل.

أولاً : المقدمة

عني المؤلفون المسلمون بجمع الطرائف العربية، وصارت مجالاً للتفكه والمتعة. وسعى طوائف من المؤلفين إلى ابتداع الطرائف والمواقف المضحكة. وجمعوا ذلك في كتب متخصصة، أو جعلوها أبوابًا في مؤلفات شاملة. من تلك الكتب ما تتبع سقطات العلماء، أو مواقف المتعالمين الذين ينكشف أمرهم في موقف ما، أو الطفيليين الذين يحتالون بحثًا عن لقمة عيش رخيصة، أو الأعراب الذين نزلوا الحواضر، أو تلقط ما يحدث في مجالس الحكام من نوادر.

وإن نظرنا إلى أبطال الطرفة اللغوية في الأدب العربي الذين تنسب إليهم وجدناهم من كل الفئات : العامة من الذكور والإناث (بما في ذلك الأعراب)، والعلماء، والمتعالمين، والطفيليين. وكثيرًا ما ألبس المؤلفون الطرفة شخصية حقيقية أو خيالية اشتهرت عند الناس بالنكتة من أمثال جحا وأشعب وأبي عَلْقمة النحوي وأبي دُلامة[1].

في الإمكان النظر إلى الطرائف من زوايا عديدة: لغوية واجتماعية وتاريخية.. إلخ. وستعنى هذه الدراسة بالطرائف العربية التي تنبني الطرافة فيها على اللغة: نحوًا أو صرفًا أو لفظًا معجميا أو سوقا للنص في غير سياقه، وما إلى ذلك. أما ما كانت الطرافة فيه ناشئة من وجوه أخرى غير لغوية فإن هذه الدراسة ليست معنية به.

ولا شك أن الهدف من الطرفة غير الهدف من هذه الدراسة، فالطرفة معجبة أو مضحكة، والدراسة تعنى ببيان أسباب الإعجاب والإضحاك من منظور لغوي. فدراسة وجوه الطرافة والفكاهة وتشقيقها أو تصنيفها جهد علمي يستجلي وجوه الطرافة، ولا يدّعي تفضيل نوع منها على آخر. يضاف إلى ما

سلف بيانه أن صاحب الطرفة ــ سواء أكان مصطنعًا لها أم جرت منه على سجية ـ ربما لا يدرك ما نسعى إلى استجلائه. ومثله في ذلك مثل العربي الذي ينطق باللغة فصيحة، ومثلنا مثل النحوي الذي يستنبط القواعد.

ونظرًا لكثرة المروي عن العرب في ذلك فكان الأجدى التقيد بمجموعة معينة من المصادر؛ وقد اكتفيت بما يأتي: عيون الأخبار لابن قُتيبة (ت ٢٧٦هـ)، والعقد الفريد لابن عبد ربّه (ت ٣٢٧هـ)، ونثر الدُّر لأبي سعد الآبيّ (ت ٤٢١هـ) وجمع الجواهر لأبي إسحاق الحُصْري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، وأخبار الحمقَى والمغفّلين لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)[٢]. وهذه الكتب تلخص كتبًا كثيرة سابقة لها، ومنها استقت مادتها. ولذا جاء قدر كبير من الطرائف مكررًا في هذه وسواها.

ولا بد أن نشير إلى أننا لسنا معنيين هنا بصحة نسبة الطرفة، فقد تكون صحيحة النسبة، وقد يلحقها التغيير، وربما تكون مختلقة لا أصل لها، إنما ابتدعتها أذهان الكتاب الذين وجدوا قراء متعطشين للطرائف فألفوها ونسبوها إلى مشاهير الظرفاء أو إلى الأعراب أو الحمقى.

ثانيًا: عوامل الطرافة

اجتهدتُ في استنباط وجوه الإعجاب والطرافة في الطرائف اللغوية باستقراء ما ورد في المصادر المذكورة، ووجدت أن الطرافة في تلك الطرائف اللغوية تكمن في عوامل كثيرة منها: التلاعب بالألفاظ، واستعمال اللفظ في غير موضعه، والوقوع في الخطأ اللغوي، واقتباس الشعر في مقام لا يناسبه، والخلط في الأسماء والأنساب والحوادث، وسوق الألفاظ الصعبة أو اختلاق الألفاظ، والتصحيف في الألفاظ، وصرف العبارة عن مدلولها، وسوء فهم المتكلم أو المتلقي لما يقول أو يسمع.

وسندرس كل عامل مما سبق ونورد له من الأمثلة ما يبين عنه بإذن الله مكتفين بالقليل من ذلك نظرًا لكثرة الطرائف مُعرضين قدر الطاقة عما فيه خدش للحياء أو مساس بأمر من أمور الدين.

١ - التلاعب بالألفاظ :

من وجوه الطرافة في النكتة اللغوية التصرف في الألفاظ بقصد المفارقة اللغوية المثيرة للعجب، سواء أكانت مقصودة أم غير مقصودة. من ذلك مثلا ما رواه الأصمعي قال: اختصمت الطُفاوة وبنو راسب في رجل يدعيه الفريقان إلى ابن عرْباض فقال: الحكمُ بينكم أبينُ من ذلك؛ يلقى في النهر فإن طفا فهو لطُفاوة، وإن رسب فهو لبني راسب[٣]. فالطرافة هنا أساسها النظر إلى المعنى اللغوي الصرف للاسمين (راسب) و(طفاوة).

ومنه ما روي عن أبي المِخشّ الأعرابي، قيل له: أيسرك أنك خليفة وأن أَمَتَكَ حرَّة، قال: لا والله لا يسرني، قيل: ولِمَ؟ قال: لأنها كانت تذهب الأمةُ وتضيع الأُمَةُ[٤]. فالشبه بين الأَمة والأُمَة غير خاف أثره في جلب النكتة. ويشبهه ما روي أن مدينيا صحب بعض ولاة المدينة فلما رجع إلى المدينة قالوا: هل ولّاك شيئًا؟ قال: نعم، ولاني قفاه[٥].

ومما يروى عن الطفيليين أن أحدهم سُئل: كم بين منزل فلان وفلان ؟ قال: قَدْر ما يصلي الرجل رغيفين[٦]. وتعرض أبو العِبَر للخليفة المتوكل يوما وقد غير هيئة لباسه فجعل في رجليه قَلَنْسُوتين وعلى رأسه خُفًّا، وجعل سراويله قميصًا، وقميصه سراويل. فقال المتوكل: عليَّ بهذه المُثْلة. فدخل عليه فقال: أنت شارب ؟ قال: ما أنا إلا عَنْفَقَةٌ قال: إني لأضع الأدهم في رجليك وأُنْفِيكَ إلى فارسَ. قال: ضع في رجلي الأشهب، وانفني إلى راجل. قال المتوكل: أتُراني في

قتلك ماثوم؟ [كذا] قال: بل ماء بَصَل، يا أمير المؤمنين[٧]. ففي قصة أبي العبر مجموعة من الألفاظ التي يذهب الخليفة فيها إلى معنى ويذهب أبو العبر إلى معنى آخر: شارب (أي سكران) والأدهم (أي القيد)، وفارس (أي بلاد فارس)، ومأثوم (أي آثم). واستغل أبو العبر المفارقة اللغوية للإضحاك والإفلات من عقاب الخليفة.

وقال عبد الله بن المبارك: كان عندنا رجل يكنى أبا خارجة، فقلت: لم كَنَّوْكَ أبا خارجة؟ قال: لأني ولدت يوم دخل سليمان بن علي البصرة![٨]. فليس بين المعنيين شبه، بل إن بينهما تضادا، وهو ما يثير الطرافة.

ومن استغلال الوجوه المحتملة للفظ لتوليد الطرفة ما فعله العباس بن الأحنف الوزير فقد أهدى إليه ابن الجصاص نبقًا، وَكَتَبَ: «تفيلت أن تبقى، فأهديتك النبقا» (أي تفاءلتُ) فكتب ابن الأحنف في جوابه: ما تفيلت يا أبا عبد الله، ولكن تبقَّرتَ[٩] أي صرتَ بقرة. وكان ابن الجصاص متهما بالغباء.

وقد تنشأ المفارقة من الاندهاش والحيرة من ذلك أن شجاع بن القاسم (ت٢٤٩هـ) دخل على المستعين مرة وطرف قبائه مخرَّق، فسأله عن سبب ذلك، فقال: اجتزت الدرب وكان فيه كلب فوطأت قَباءه فخرق ذنبي[١٠]. ومِثْله الرجلُ القطان الذي دخل على المتوكل فقال: ما اسمك؟ قال: قَطَّان. قال: ما صناعتك؟ قال: حمدان. قال المتوكل: لعل اسمك حمدان، وصناعتك قطان؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ولكني دُهشت لهيبتك[١١].

٢ - وضع اللفظ في غير موضعه:

تكمن الطرافة أحيانًا في استعمال اللفظ في غير سياقه، من ذلك ما روي عن أبي عبد الله الجصاص أنه كان يومًا يأكل مع الوزير ابن الفرات فلما فرغ قال:

الحمد لله الذي لا يحلف بأعظم منه[١٢]. ومن ذلك أن رجلاً خطب خطبة نكاح وأعرابي حاضر فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، حيّ على الصلاة، حي على الفلاح فقال الأعرابي: لا تُقِم، فإني على غير وضوء[١٣].

ومنه أن أبا جَواليق المديني خرج يشتري حمارًا، فلقيه صديق له فقال: أين تريد؟ قال: أريد السوق لأشتري حمارًا. قال: قل: إن شاء الله. قال: ليس هذا موضع «إن شاء الله» الدراهم في كمّي والحمار في السوق. فبينا هو يطلب الحمار سُرقت دراهمه فرجع حزينًا، فلقيه صاحبه قافلاً فسأله: ما صنعْتَ؟ قال: سُرقت دراهمي إن شاء الله![١٤].

ومن ذلك أن مزبّدا اشترى رأسين فوضعهما بين يدي امرأته، وقال: اقعدي نأكل. فأخذت رأسًا فوضعته خلفها وقالت: هذا لأمي. فأخذ مزبّد الرأس الآخر فوضعه خلفه وقال: هذا لأبي. قالت: ماذا نأكل؟ قال: ضعي رأس أمك أضَعْ رأسَ أبي![١٥].

٣ - الخطأ اللغوي:

مثار الطرافة أحيانًا هو ما تشتمل عليه الطرفة اللغوية من خطأ نحوي أو صرفي. وقد حظي الخطأ النحوي بالنصيب الأوفى، وصار مجالاً للتندر.

فمن الطرائف التي مدار العجب فيها على الخطأ النحوي ما رواه أبو زيد الأنصاري قال: كنت ببغداد فأردت الانحدار إلى البصرة فقلت لابن أخي: اكْتَرِ لنا. فجعل ينادي: يا معشر الملاحون فقلت: ويحك ما تقول جُعلت فداك؟ فقال: أنا مولع بالنصب[١٦]. وروى ميمون بن مهران أن رجلاً قال لصديقه: ما فعل فلان بحماره؟ قال: باعِهُ. قال: قل «باعَه». قال: فلم

قلت: بحماره ؟ قال: الباء تجر. قال: فمن جعل باءك تجر وبائي ترفع؟ (١٧)
وفي حرف الجر طرفة أخرى، فعن أبي الحسن القاسم قال: كتب بعض الناس: «كتبت إليك من طيس» يريد «طوس». فقيل له في ذلك فقال: لأن «من» تخفض ما بعدها. فقيل: إن (من) تخفض حرفا واحدا لا بلدًا له خمسمائة قرية!(١٨).

وعن الأصمعي عن عيسى بن عمر قال: كان عندنا رجل لَحَّان فلقي رجلاً مثله فقال: من أين جئت؟ فقال: من عند أهلونا. فتعجب منه وحسده وقال: أنا أعلم من أين أخذتها، أخذتها من قوله تعالى: (شغلتنا أموالنا وأهلونا)(١٩).

ومن استثقال بعض العامة كلام الفصحاء من العلماء ما حصل لأبي زيد الأنصاري النحوي حين وقف على قصّاب عنده بطون فقال: بكم البطنان؟ فقال القصاب: بدرهمان يا ثقيلان !(٢٠).

ومن الطرائف التي تكمن النكتة فيها في تعريف الكلمة أو تنكيرها ما روي أنه كان لبعض الأدباء ابن أحمق كثير الكلام، فقال له أبوه ذات مرة: يا بني لو اختصرت كلامك إذْ كنتَ لستَ تأتي بالصواب. قال: نعم. فأتاه يومًا فقال: من أين أقبلت؟ قال: من سوق. قال: لا تختصرها هنا، زد الألف واللام. قال: من سوقال. قال: قدم الألف واللام. قال: ألف لام سوق. قال: وما عليك لو قلت: السوق، فو الله ما أردت باختصارك إلا تطويلاً(٢١).

ومن الطرائف ما ترجع النكتة فيها إلى الخط والرسم ما رواه العُتْبي عن أبيه قال: أنشدني أبو وائل:

ما أوجع البين من غريبِ ... فكيف إن كان من حبيبِ
يكاد من شوقه فؤادي ... إذا تذكرتُه يموتُ

فقلت له: إن هـذا باء وهذا تـاء (يعني القافيـة)، قال: لا تنقط! قلت: إن البيت الأول مخفـوض، وهــذا مـرفـوع. قــال: أنـا أقـول لــه لا تنقط، وهـو يَشْكُل[٢٢]. ومن ذلك ما يذكـر من أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى عثمان بن حيـان المُـرِّيّ: أحْـصِ المخنَّثين. فـوقعت فـوق الحاء نقطـة فـأخـذهم المري وخصاهم[٢٣]. وكتب رجل إلى قاض في أمر قوم من جيرانه اختصموا: إن الذي لم يجرِ بينهما غير مفهوم وقد أردت الاستصلاح فعاد استفسادا. فإن رأى القاضي ـ أدام الله عزله ـ أن يصفح عن كتابي فـإن فيه نقصًا. فقال القاضي: لا، بل فيه زيادة لام كفانـا الله شرها[٢٤]. والقـاضي يشير بذلك إلى الـلام التي زيـدت في (عزله) والمراد بها (عِزَّه).

وقد كانـت العجمة اللغوية مجلبـة للطرافة كعجمة أبي عطـاء السندي الذي دخل على قوم فأقبل يقول: مرهبًا مرهبا، هياكم الله[٢٥]. فقد قلب الحاء هاء. وروى أبو أحمد الحارثي أن أحد كتاب الديلم كتب مـرة بحضرته تذكرة بأضاحي يريد تفريقها في دار صاحبه: القائد ثـور، امرأته بقرة، ابنه كبش، ابنته نعجة، الكـاتب تيس. قـال الحارثي: فقلـت: يـا سيـدي، الـروحُ الأمينُ ألقى إليك هذا؟! فلم يدر ما خاطبته به وسَلِمْتُ منه[٢٦].

٤ - اقتباس الشعر في مقام لا يناسبه:

من وجوه الطرافة الاستشهاد بالشعـر في غير ما هو محل له؛ من ذلك ما روي أن مجنونًـا بالبصرة كـان يأوي إلى دكان خياط وفي يـده قصبة قـد جعل في رأسها أكرة ولفّ عليهـا خرقة لئلا يـؤذي الناس، فكان إذا أغضبـه الصبيان التفت إلى الخياط وقال له: قد حمي الوطيس وطاب اللقاء، فما ترى؟ فيقول: شأنك بهم. فيشد عليهم ويقول:

أشـــد على الكتيبـــة لا أبـــالي أَحَتْفِي كـــان فيهـــا أم سـواهـــا

فإذا أدرك صبيا رمى به إلى الأرض، وينصرف وهو يقول :

أنـا الـرجل الضَّرْبُ الـذي تعـرفـونـه خَشَـاش كـرأس الحَيَّـةِ المتـوقـد

ثم يرجع إلى دكان الخياط، ويلقي العصا من يده ويقول :

فألقت عصـاهـا واستقـر بها النَّوَى كما قـرَّ عيناً بـالإيـاب المسـافـر[٢٧]

ومما يدخل في هـذا الباب ما روي أنه كان ببغـداد طبيب اسمه نُعْمان، وكان لا ينجح مريض على يديه فقال فيه بعض الشعراء :

أقـول لنعمان وقـد سـاق طبُّـه نفـوسـا نفيسـات إلى داخل الأرضِ

«أبـا منـذر أفنيت فـاستبق بعضنـا حنانيك بعضُ الشر أهون من بعضِ»[٢٨]

٥ - الخلط في الأسماء والأنساب والحوادث :

من وجوه الطـرافة اختـلاط المعلومـات لدى المتحدث؛ ومـن نماذج ذلك ما روي عن الشعبي قـال : سمعت أبـا بكر يقـول : مـررت بمـؤدب وقد تـلا على غلام : «فريق في الجنة وفريق السعير» فقلت : مـا قال الله من هذا شيئا إنما قال : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ . فقال : أنت تقرأ على حـرف أبي عاصم بن علاء الكسائي، وأنا أقرأ على حرف أبي حمزة بن عاصم المدني![٢٩] .

وأشد منه ما روي عن ثمامة بن أشرس قـال : شهدت رجلا وقد قدم خصما له إلى بعض الـولاة فقـال : أصلحك الله، أنـا رافضي نـاصبي، وخصمي جهمي مشبه مجسم قدري، يشتم الحجاج بن الـزبير الذي هدم الكعبة على عليّ بن أبي سفيان، ويلعن معاوية بن أبي طـالب. فقال الوالي : ما أدري مم أتعجب، من علمك بالأنساب أم من معرفتك بالألقـاب! قال : أصلحك الله ما خرجت من الكُتَّاب حتى تعلمت هذا كله![٣٠] .

ومن الناس من يخرج من خطأ ليقع في آخر كالذي دخل على رجل يعزيه بأخ له فقال: أعظم الله أجرك ورحم أخاك، وأعانه على ما يرد من مسألة «يأجوج ومأجوج». فضحك من حضر، وقالوا: ويحك، ويأجوج ومأجوج يسائلان الناس؟! قال: أردت أن أقول: هاروت وماروت![٣١]. فهذا المُعَزِّي اختلطت عليه الأمور، ولم يهتد إلى اسمي (منكر ونكير) الموكلين بسؤال الموتى.

ومن الطرائف التي اختلطت فيها التواريخ بالأسماء ما رواه أبو العنبس قال: صحبني رجل في سفينة فقلت: ممن الرجل؟ فقال: من أولاد الشام، كان جدي من أصدقاء المنصور عليّ بن أبي سالم شاعر الأنبار، وكان من الذين بايعوا تحت الشجرة مع أبي سالم بن يسار في وقعة الفاروق أيام قتل الحجاج بن يونس بالنهروان على شاطئ الفرات مع أبي السرايا![٣٢].

٦ - سوق الألفاظ الصعبة أو اختلاقها:

كان سوق الألفاظ الغريبة وجها من وجوه التندر والطرافة، واشتهر بذلك جمع من النحاة كيحيى بن يعمر (ت ١٢٩ هـ) وعيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ)، وأبي علقمة النُّميري النحوي، وأبي المكنون النحوي.

فمن تقعير يحيى بن يعمر أنه قال لرجل خاصمته امرأته: أأن سألتك ثمن شَكْرِها وشَبْرِك أنشأت تَطُلُّها وتَضْهُلُها؟![٣٣].

ومن طرائف عيسى بن عمر أنه ضربه عمر بن هُبيرة ضربًا كثيرًا في وديعة أودعها إنسان فطلبها، فكان يقول: والله، إن كانت إلا أُثَيَّابًا في أُسَيْفاطٍ أخذها عشَّاروك[٣٤]. وكان مرة يحدث أبا عمرو بن العلاء قائلاً: مررت بقنطرة قَرّة فلقيني بعيران مقرونان في قَرَن، فما شعرت شعرة حتى وقع قرانهما في عنقي فلُبِج بي فافرنقع عني، والناس ينظرون[٣٥].

وأشهر المُغربين وأشد المتقعرين أبـو علقمة النميري النحوي الذي تروى عنه حكايـات عديـدة؛ منها أنه دخل على أعين الطبيـب فقال: أمتع الله بك، إني أكلت من لحوم هـذه الجوازل فطسِئْتُ طسأة، فأصابني وجع مـا بين الوابلـة إلى دأبة العنق، فلم يزل يربـو وينمَى حتى خالط الخِلبَ والشراسيف، فهل عندك دواء؟ فقال أعين: نعم خـذ خربقًا وشلفقًـا وشبرقا فزهـزقه وزقزقـه واغسله بماء روث فـاشربـه. فقـال أبـو علقمـة: لم أفهم عنك. فقـال أعين: أفْهَمْتُكَ كما أفهمتني[٣٦].

ومن ذلك أنه كـان له غلام يخدمه فأراد أبـو علقمة الدخول لبعض حـوائجه فقال: يـا غلام، أصَقَعَتِ العتاريفُ؟ قـال الغلام: زَقْفَيْلَمْ! قال أبـو علقمة: ومـا «زقفيلم»؟ قال لـه: وما صقعَتِ العتـاريفُ؟ قال: قلت لك: أصـاحتِ الديوكُ؟ قال الغلام: وأنا قلت لك: لم يَصِحْ منها شيء![٣٧].

أما أبـو المكنون النحـوي فسمعه أعرابي في حلقتـه يدعـو للاستسقـاء قائلاً: اللهم ربنـا وإلهنا ومولانـا صل على محمد نبينـا، اللهم من أراد بنا سـوءًا فأحط السوء بـه كإحاطـة القلائد على ترائب الـولائد، ثم ارسخه على هـامته كـرسوخ السِّجِّيل على هـام أصحاب الفيل. اللهم اسقنـا غيثًـا مغيثًا، مَـريئًـا مَريعًـا، مجلجلاً مسحنفرًا، هَزِجًا سَحًّا سَفوحًا، طَبَقًـا غدقًا مثعنجرا. فقال الأعرابي: يا خليفـة نـوح، هـذا الطـوفـان ورب الكعبـة! دعني آوي إلى جبل يعصمني من الماء[٣٨].

وقد يقصد بـالتقعر الإغراب على السامع كالذي يـروى أن الشعبي قال لرجل استجهله: ما أحوجك إلى مُـحَدْرج شـديد الفتل، جيد الجلاز، عظيم الثمرة، لدن المهـزة، يأخذ منك فيما بين عَجْب الذنـب ومغرز العنق فتكثر لـه رقصاتك من غير جذل! فقال: وما هذا؟ قال: بعض الأمر[٣٩]. يريد بذلك السوط.

ومن سبل التعجيب اختلاق ألفاظ غير معهودة كالذي يروى عن بشَّار بن بُرد أنه مات له حمار فقال: رأيت حماري البارحة في النوم، فقلت له: ويلك مالك متَّ ؟ قال: إنك ركبتني يوم كذا وكذا فمررنا على باب الأصبهاني فرأيت أَتَانًا عند بابه فعشقتها، وأنشدني:

سيدي مِلْ بعناني ... نحو باب الأصبهاني
إن بالباب أَتانًا ... فَضَلَتْ كُلَّ أَتان
تيّمتْني يومَ رُحْنا ... بثناياها الحِسان
وبغَنْج ودلال ... سلَّ جسمي وبراني
ولها خد أَسَيلٌ ... مثلُ خد الشيقران
فبها متُّ ولو عشـ ... ـتُ إذًا طال هواني

فقال له رجل: يا أبا معاذ، وما الشيقران؟ قال: هذا من غريب الحمير فإذا لقيتم حمارًا فسلوه![٤٠].

ومن اختلاق اللفظ ما رواه عبد الله بن المفجّع قال: كان المبرد لعظم حفظه اللغة واتساعه يُتَّهَم، فتواضعنا على مسألة لا أصل لها، وكنا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فقطعناه وتردد على أفواهنا تقطيعه، ومنه «قِ بَعضَنَا» فقلت له: أيدك الله: ما «القبعض» عند العرب؟ فقال: القطن، يصدق ذلك قول الشاعر:

كأنّ سنامَها حُشِيَ القِبَعْضَا

قال : فقلت لأصحابي : ترون الجواب والشاهد؟ إن كان صحيحًا فهو عجب، وإن كان اختلق الجواب فهو أعجب[٤١].

ومن سبل الإغراب التعلق بمعنى غير معهود أو بعيد في لفظة معينة؛ من ذلك ما رواه أبو بكر الكلبي قال: خرجت من البصرة فلما قدمت الكوفة إذا بشيخ جالس في الشمس، فقلت: يا شيخ، أين منزل الحكم؟ فقال: وراءك. فرجعت إلى خلفي. فقال: يا سبحان الله، أقول لك وراءك وترجع إلى خلفك! أخبرني عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ قال: «وراءهم»: بين أيديهم[٤٢].

٧ - التصحيف :

هنالك قدر كبير من الطرائف العربية التي ترجع الطرافة فيها إلى التصحيف الذي لحق بعضًا من مفرداتها. وقد اشتهر هذا الباب، وصار مجالاً للتندر والطعن، وأفردت له المؤلفات لأغراض التندر أو بيان الصواب[٤٣].

من ذلك ما تصحف على ابن الجصاص الذي نظر يومًا في المصحف فقرأ (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) وجعل يقول: رخيص والله، وهذا من فضل ربي، آكل وأتمتع بدرهم. فصحَّف (ذرْهم) إلى (درْهَم)[٤٤]. وهذا النوع من التصحيف كثير، وعزي شيء منها إلى عثمان بن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٩) كقراءته: (فضرب بينهم بسور له ناب) بدل (باب)[٤٥].

ومن التصحيف في الحديث ما رواه يحيى بن بكير (ت ٢٠٨) أن رجلا جاء إلى الليث بن سعد فقال: كيف حدثك نافع عن النبي ﷺ «في الذي نشرت في أبيه القصة»؟ فقال الليث: ويحك، إنما هو «في الذي يشرب في آنية الفضة»[٤٦]. ومما يروى أنه لما مات محمد بن يحيى أجلسوا مكانه محدثًا اسمه

محمد بن يزيد فأملى عليهم: (يا أبا عمير، ما فعل البعير؟) بدل (. . . ما فعل النُّغَير)[٤٧] وصحف بعضهم قوله ﷺ: «لا يُورَثُ حَميل إلا ببيّنة» فقال: لا يرث جميل إلا بثُبينة[٤٨].

٨ - صرف اللفظ عن مدلوله الظاهر:

تكمن الطرافة في بعض الحالات في صرف اللفظ عن مدلوله المتبادر إما غفلة أو تخلصًا أو تبرمًا أو تعييرًا. فمن النوع الأول ما روي أن جحا اجتاز يومًا بباب الجامع فقال: ما هذا؟ فقيل: مسجد الجامع. فقال: رحم الله جامعًا، ما أحسن ما بنى مسجده![٤٩]. ومنه ما رواه أبو الحسن الدارقطني أن أبا موسى محمد بن المثنى العنزي قال لهم يومًا: نحن قوم لنا شرف، نحن من عنزة، وقد صلى النبي ﷺ إلينا! لما روي أنه ﷺ صلى إلى عَنَزَةٍ، وهي حربة كانت تُحمل بين يديه فتُنْصَب ويصلي إليها[٥٠].

ومن الفطنة في صرف اللفظ للتخلص من مأزق ما روي أن عبد الملك بن مروان أخذ رجلا من الخوارج يرى رأي شبيب، فقال له: ألست القائل:

ومنا سُويدٌ والبطينُ وَقَعنبٌ ومنا أميرُ المؤمنين شبيبُ

فقال: إنما قلت: «ومنا ـ أَمِيرَ المؤمنين ـ شبيبُ» [بنصب أمير] فأمر بتخليته[٥١].

ومن هذا الباب ما يروى من أن المأمون خرج منفردًا فلقي أعرابيا فقال: ما أقدمك؟ قال: الرجاء لهذا الخليفة، وقد قلت أبياتا أستمطر بها فضله. قال أنشدنيها. قال: يا ركيك، أوَ يحسن أن أنشدك ما أنشد الملوك؟ وبينما هو كذلك إذ أحدقت الخيل بهما وسلموا على المأمون بالخلافة فعلم الأعرابي أنه قد وقع، فقال: يا أمير المؤمنين، أتحفظ من لغات اليمن شيئا؟ قال: نعم. قال:

فمن يبدل القاف كافا ؟ قال : بنو الحارث بن كعب . قال : قبحها الله من لغة لا أعود إليها بعد اليوم . فضحك المأمون(٥٢).

ومن طريف تلاعب النحاة بالكلم ومدلولاتها ما روي أن رجلاً اسمه عمر قال لعلي بن سليمان الأخفش : علمني مسألة من النحو. قال : تعلّم أن اسمك لا ينصرف . فأتاه يوما وهو على شغل فقال : من بالباب ؟ قال : عمر. قال : عمر ينصرف . قال : أو ليس قد زعمت أنه لا ينصرف ؟ قال : ذاك إذا كان معرفة ، وهو الآن نكرة !(٥٣).

وقد يدفع التبرم وسرعة الغضب المرء إلى الإتيان بما لا يليق بمقامه ، من ذلك ما يقال عن محمد بن مطروح الأعرج بأنه كان شديد التبرم ، سريع الضجر ، وأنه كانت لقومس الكاتب عنده منزلة وجِوار ، وكانت صلاة قومس معه في الجامع والأعرج صاحب الصلاة . فإذا حضرت الصلاة ولم يحضر قومس قال لبعض القومة : أنت يا شيطان ، كلِّم هؤلاء الكلاب لا يقيموا الصلاة حتى يأتي ذلك الخنزير!(٥٤).

ومن صرف اللفظ عن مدلوله الظاهر توريةً بأمر معهود بعيد ما روي من أن معاوية رضي الله عنه قال للأحنف بن قيس : يا أحنف ، ما الشيء الملفف في البجاد؟ قال الأحنف : هو السخينة يا أمير المؤمنين . أراد معاوية قول الشاعر :

إذا مات مَيْت من تميم فسرك أن يعيشَ فجِئْ بزاد

بخبز أو بتمر أو بسمن أو الشيء الملفَّف في البجادِ

وأراد الأحنف أن قريشا كانت تُعَيَّرُ بأكل السخينة . والسخينة طعام يتخذ من الدقيق ، وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء شُهرت بأكله قريش(٥٥).

ومن ذلك ما حدث لأبي بكر سيبويهِ المصريِّ الذي كان سليط اللسان حاضر البديهة، فوبخه الخازن مرة وتوعده. فكان إذا مر بصبيان صاحوا به : يا خازن، يا خازن ! اخرج عليه. فيغضب سيبويه. فقال له ذلك يومًا صبي وأبو بكر المُعيطي حاضر فضحك المعيطي، فقال سيبويه للصبي : ضرب الله عنق الخازن كما ضرب رسول الله ﷺ عنق عقبة بن أبي مُعَيط يوم بدر على الكفر، وضرب ظهر أبيك بالسوط كما ضرب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ظهر الوليد ابن عقبة على شرب الخمر، وألحقك يا صبي بالصبية. فقام المعيطي كأنما نُشِر من قبر. ويريد بقوله : «وألحقك بالصبية» قول النبي ﷺ لعقبة بن معيط ـ وقد قال : مَن للصبية؟ ـ قال : النار(٥٦).

ومنه أن خصيا لزِرْياب قد حج وتنسك ولزم الجامع وكان يجلس إلى محمد بن مطروح الأعرج فسأله مرة: ما تقول في الكبش الأعرج، أيجوز في الأضحية؟ قال: نعم، والخصي أيضا!(٥٧).

٩ - سوء الفهم :

لسوء فهم المتكلم أو المتلقي أثر في جلب النكتة في بعض المواقف. وقد يكون ذلك لغباء أو عجمة، كما رأينا سابقًا في قصة الكاتب الديلمي الذي يفرق الأضاحي. ومما يدخل في هذا القسم ما رواه محمد بن هلال الصابئ قال: خرج قوم من الديلم إلى إقطاعهم فظفروا باللص المعروف بالعراقي، فحملوه إلى الوزير أبي عبد الله المهلبي فتقدم بإحضار أبي الحسين أحمد بن محمد القزويني الكاتب، وكان ينظر في شرطة بغداد فقال له المهلبي: هذا اللص العيار العراقي الذي عجزتم عن أخذه، فخذوه واكتب خطك بتسليمه. فقال الكاتب : السمع والطاعة إلى ما يأمر به الوزير، ولكنك تقول ثلاثة، وهذا واحد، فكيف

أكتب خطي بتسليم ثلاثة؟! فقال: يا هذا، هذا العدد صفة لهذا الواحد. فكتب يقول: أحمد بن محمد القزويني الكاتب، تسلمت من حضرة الوزير اللص العيار العراقي، ثلاثة وهم واحد رجل. فضحك الوزير وقال لنصراني هناك: قد صحح القزويني مذهبكم في تسليم اللص[٥٨]. يشير الوزير بذلك إلى عقيدة التثليث عند النصارى. وقد ألبس على الكاتب الأعجمي تعدد الأسماء: (اللص العيار العراقي) فظن أن كل اسم يرمز إلى شخص منفرد.

ومن نوادر الكُتَّاب الداخلة في هذا القسم ما رواه الحسين بن السميدع الأنطاكي قال: كان عندنا بأنطاكية عامل من حلب، وكان له كاتب أحمق فغرق في البحر (شلنديتان) من مراكب المسلمين التي يقصد بها العدو. فكتب ذلك الكاتب عن صاحبه إلى العامل بحلب بخبرهما: بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم أيها الأمير أعزه الله تعالى أن شلنديتين، أعني مركبين، قد صفقا من جانب البحر، أي غرقا من شدة أمواجه، فهلك من فيهما، أي تلفوا. قال: فكتب إليه أمير حلب: بسم الله الرحمن الرحيم، ورد كتابك، أي وصل، وفهمناه أي قرأناه. أدّب كاتبك، أي اصفعه، واستبدل به، أي اعزله، فإنه مائق، أي أحمق. والسلام، أي انقضى الكتاب![٥٩].

ومن هذا الباب ما روي أن عجوزًا أتت إلى لحّام فقالت: أعطني بدرهم لحمًا وطيّبه لي، وأخبرني باسمك حتى أدعو لك. فأعطاها شر لحم، وقال: اسمي «مَنْ تَمُدّ». فلما رجعت العجوز إلى بيتها جعلت تمد اللحم فلا تقدر عليه، فجعلت تقول: لعن الله «من تمد»![٦٠].

ثالثا: الخاتمة

نختم هذا البحث عن الطرائف اللغوية بالملاحظات الآتية:

١ - أن «الطرافة» أمر يمكن تلمسه ودراسته في الطرائف اللغوية، وتحديد العامل المسبب للضحك، وأن ذلك لن يضير الطرائف شيئًا.

٢ - أن الأدب العربي يزخر بطرائف كثيرة عني المصنفون منذ عصر التأليف المبكر بجمعها وتداولها سواء أصدرت من علية العلماء والحكام أم من عامة الناس.

٣ - أن دراسة الطرائف مثْرية للدراسات اللغوية وفاتحة أبوابًا جديدة لها. وهو أمر قل من يهتم بدراسته ونقده في العصر الحاضر.

٤ - أن هذا البحث لا يزعم الإحاطة، وإنما هو محاولة لدراسة بعض من عوامل الطرافة والتمثيل لها. ولا شك أن المجال متسع لمزيد من العوامل، ومزيد من الاجتهاد لكشفها.

هذا، والحمد لله أولا وآخرًا. وصلى الله وسلم على النبي المختار محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الهوامش

(١) انظر : أدبنا الضاحك، لعبد الغني العطري، دمشق: دار البشائر، ط٢، ١٤١٢هـ، ص ٣٢ ـ ٥٣؛ محمد رجب النجار، جحا العربي، الكويت: ذات السلاسل، ط٢، ١٩٨٩م، ص ١١١ ـ ٢٣٧.

(٢) كتاب عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، القاهرة: دار الكتب الوطنية، ١٣٤٣هـ؛ وكتاب العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وزميليه، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ؛ ونثر الدر، لأبي سعد منصور بن الحسين الآبي، تحقيق محمد علي قرنة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م؛ وجمع الجواهر في الملح والنوادر، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق محمد علي البجاوي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م؛ وأخبار الحمقى والمغفلين، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٣) العيون ٢/ ٦٠، العقد ٣/ ٤٣٠.

(٤) العقد ٣/ ٤٧٩.

(٥) نثر الدر ٢/ ٢٢٠.

(٦) نثر الدر ٢/ ٢٣٦؛ وانظر: ص ٢٣٤.

(٧) جمع الجواهر، ص ٨٢. والعنفقة: الشعيرات التي بين الشفة السفلى والذقن.

(٨) جمع الجواهر، ص ٣٦١.

(٩) أخبار الحمقى والمغفلين، ص٤٣. وعن ابن الجصاص انظر: فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد ابن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٧٣م ١/ ٣٧٢ ـ ٣٧٦.

(١٠) أخبار الحمقى، ص ٩٠.

(١١) جمع الجواهر، ص ٨٠.

(١٢) أخبار الحمقى، ص٤٢.

(١٣) العقد ٦/ ٤٤٤؛ وفي أخبار الحمقى ص ١٧٣ إلى أن المنكح هو ابن لأبي الأسود الدؤلي، وأن أبا الأسود هو الذي قال ما نسب هنا إلى الأعرابي.

(١٤) نثر الدر، ٢/ ٢٢٦.

(١٥) جمع الجواهر، ص٣٦١.

(١٦) أخبار الحمقى، ص ١١٣. وفي نزهة الألباء، لابن الأنباري، ص ١٠١ أن ابن أخيه قال: أنا مولع بالرفع.

(١٧) أخبار الحمقى، ص ١١٥ .

(١٨) نفسه، ص ١١٧ .

(١٩) نفسه، ص ١١٧ .

(٢٠) نفسه، ص ١١٩ .

(٢١) نفسه، ص ١٦٥ .

(٢٢) العقد، ٦/ ١٦٦ .

(٢٣) جمع الجواهر ص ٥١ . وقد اختلف في هذه القصة، وانظر : تصحيفات المحدثين، لأبي أحمد العسكري، تحقيق محمود أحمد ميرة، القاهرة: المطبعة الحديثة، ١٤٠٢هـ، ١/ ٧١ ـ ٧٢ .

(٢٤) جمع الجواهر ص٢٣٩ .

(٢٥) العقد ٦/ ٤٧١ .

(٢٦) أخبار الحمقى، ص ١٠٠، وانظر أيضًا : ص ١٠١ .

(٢٧) العقد ٦/ ١٥٠ .

(٢٨) جمع الجواهر، ص ١٩٥ .

(٢٩) أخبار الحمقى، ص ١٣٤ .

(٣٠) نفسه، ص ١٤٤ .

(٣١) نفسه، ص ١٦٢ .

(٣٢) نفسه، ص ١٦٩، وانظر أيضًا ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦ .

(٣٣) طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر محمد بن الحسن الزُبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٢٨ .

(٣٤) عيون الأخبار ٢/ ١٦١ . وفي أخبار النحويين البصريين، لأبي سعيد السيرافي، تحقيق محمد إبراهيم البنا، القاهرة: دار الاعتصام، ص ٤٩ أن الذي ضربه هو عيسى بن عمر في وديعة أودعها إياه أحد أصحاب خالد بن عبد الله القسري .

(٣٥) طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الزُبيدي، ص٤٤ .

(٣٦) عيون الأخبار ٢/ ١٦٢ .

(٣٧) معجم الأدباء، لياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق أحمد فريد رفاعي، بيروت إحياء التراث العربي، ١٢/ ٢٠٧ . وانظر بقية طرائفه ص ٢٠٨ ـ ٢١٥ .

(٣٨) عيون الأخبار ٢/ ١٦٤ .

(٣٩) نفسه ٢/ ٣٧ .

(٤٠) العقد ٦/ ٤٤٢ .

(٤١) نزهة الألباء، لابن الأنباري، ص١٦٦ .

(٤٢) أخبار الحمقى، ص ٣٧.

(٤٣) انظر مثلا : تصحيفات المحدثين، لأبي أحمد العسكري؛ والتنبيه على حدوث التصحيف، لحمزة ابن الحسن الأصفهاني، تحقيق محمد أسعد طلس، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٨٨هـ.

(٤٤) أخبار الحمقى، ص ٤٢. والآية في سورة الحجر: ٣.

(٤٥) نفسه، ص ٦٧.

(٤٦) نفسه، ص ٧٣.

(٤٧) نفسه، ص ٨٤.

(٤٨) تصحيفات المحدثين، للعسكري ١/ ٦٢.

(٤٩) أخبار الحمقى، ص ٣٩.

(٥٠) نفسه، ص ٧٥.

(٥١) عيون الأخبار ٢/ ١٥٥.

(٥٢) جمع الجواهر، ص ٢٠.

(٥٣) نفسه، ص ١٨١.

(٥٤) العقد ٦/ ٤٣٥.

(٥٥) عيون الأخبار ٢/ ٢٠٣. انظر: اللسان (مادة : سخن).

(٥٦) جمع الجواهر، ص ٢٢٧.

(٥٧) العقد، ٦/ ٤٣٦.

(٥٨) أخبار الحمقى، ص ٩٢.

(٥٩) أخبار الحمقى، ص ٩٩.

(٦٠) نفسه، ص ١٤٧.